

مع الأمير سعيد شامل

الشرق — رُق كما أراه

وثبات الشرق — انتصار المستعمرين — أمراضنا — كيف نتجو —
المؤتمر الاسلامي — شخصيات — حياتنا — دعوة إلى النجدة
حديث خاص بمجلة (المعرفة)

لم يقلت من إيسار الشباب ، فما يزال في دخيلة مراحلها وفي صميم خطواته ، له النظرة
السديدة والرأى السديد، وله دأب كدأب الأسود في مجالدة الفريسة، ومناهضة الصائدين ، يستطيع
أن ينفذ إلى تسك، لأنه في آرائه لا يتدافع مع الخيلاء ، ولا يسير الصلف والكبرياء: كلما سألته ،
كلما أتاح لك سؤالك الطلوع على ناحية جديدة فيه ، فهو علامة فهامة ، مافي ذلك من ريب .
وكلما لقيته كلما جابهك منه لون من ألوان التواضع وأى تواضع ... إنه ذلك الذي يدعوك
إلى الهدوء في جانبه - حتى لتحس من أعافك أنك لم تستروح في جلستك روائح أمير خطير !
ولكنه نبيل حتى لتلمس النبيل وكأنه حاسته السادسة .

ذلك هو الأمير الشركسي الشاب .. سعيد شامل .. !

لقيناه في فندق (الكوتنتنتال)، وكنا لقيناه من قبل في دار العروبة فتحدثنا إليه وتحدث
إلينا، والحق أن حديثه قد استحال إلى دين، فكان لنا من حديثه الممتع ثروة نافعة ندفع بها
إلى قراء « المعرفة » مغتبطين .

وثبات الشرق :

قال الأمير : « لقد كانت للشرق وثبات هائلة حافلة بالخير والساد ، كان ينبغي أن يدفع
عنه إيسار الاستعمار ، فأخرج لهذا الكفاح من بنيه جنودا أقوياء ، وقادة أشداء ، ورؤساء
قد اتهموا من قمة الدراية إلى الأوج .

ولا أستطيع أن أعدد لك ، وأحصى عليك من أسماء أولئك الأبطال ومن أعمالهم ، فقد
يستنفذ هذا التعداد وذلك الإحصاء جوانب « المعرفة » كلها ، ولكني أذكر لك ثلاثة أبطال
وقفت الدنيا على رؤوسهم لتبليها وتدفع بها إلى الحضيض ، فلم تفلح الدنيا ، ولم تنفع في سحقهم
معاوئها ! أولئك هم : أبو الأميرة الملكية في مصر ساكن الجنان محمد علي باشا ، والمرحوم
المغفور له الأمير عبد القادر الجزائري ، وجدى المغفور له الأمير شامل ... لقد وثب أولئك
الرجال الثلاثة بالشرق وثبة كبرى ، فهذا محمد علي باشا ، قد خلق مصر حين أزاح عنها كابوس

الجهل ، وهذا هو الأمير عبد القادر قد كافح الفرنسيين وجالدهم متفانياً مستخفاً بالعذاب ، وهذا جدي : ماذا أقول عنه ؟ لقد غامر بنفسه في أتون الحوادث راضياً أن تبيد عنه النعماء في الدنيا ، لتكون له في حلبة الجهاد جولات الرجل الأشد .
انتصار المستعمرين :

على أنك تسألني : لماذا انتصر المستعمرون إذن ؟ إذن فاليك الجواب :
لقد كان المستعمرون يحاربوننا بسلاحين : سلاح الحرب المألوف ، وسلاح العلم الطارئ ، وإذا كنا قد جالدهم بسلاح الحرب وحده ، فقد قدر لهم أن ينتصروا ، لأنهم دفعوا إلى معاقلتنا سلاح العلم أيضاً ... كنا نحاربهم بالحديد والنار ، وكانوا يحاربوننا بالحديد والنار .. والعلم : كنا نقاتلهم بهذه السيوف التي ألفتها الميادين ، ولكنهم قاتلونا بسيوف أخرى ، علمتنا أن لهم أدمغة توفرت على ما لم تتوفر عليه من فنون ..!
وما يضيرني أن أقول لك إن الشرق في هذه الفترة كان يجتاز محنة وبيلة حتمت عليه الرضوخ لاسار المستعمرين .

ذلك أن غشية الجهالة كانت تعمى عيونه ، وتوقر آذانه ، وتدفع بتفكيره إلى الحضيض .
ولقد بقيت له هذه الظاهرة ، ظاهرة الجهل والعقوق ؛ حتى أزاحت أثقالها عليه ، فكان له من ورائها إسفافاً في الذلة ، وإسرافاً في الهوان .
أمراضنا :

وتهيب بي هذه المرحلة التي أذعتها عليك من مراحل الشرق ، تهيب بي إلى تسجيل أمراضه ، أو تشخيصها كما يقول الأطباء ، وقبل أن أسجلها لك ، وقبل أن أشخصها ، أريد أن أقرر حقيقة لا لبس فيها ، وهي أنني أغنى بالشرق ، ما يتصل منه بالاسلام وحده .
إن هذه الأمراض من الكثرة حتى لتروع الطبيب الصناع ، وإنها من الدقة حتى ليخطئ في استئصالها مبضعه ، ولكن الأيام وحدها كفيلة بانتراعها من ذلك الجسم الطيب العنصر ، المتين البناء .

في الشرق : انصراف هائل عن تعاليم الاسلام ، وانكباب هائل على مدنية الغرب ، وفيه تقاطع بين الأسرة ، وتنابد بالألقاب ؛ وتفاخر بالأنساب ، وتغلغل في صميم المباحج ، وتوفر على مستكره البهرج ... أما انصرافه عن تعاليم الاسلام فإن ذلك يبدو لك في أخذه بقشورها ، وتقاعده عن استكناه بواطنها ، وإنه يبدو لك في شؤه وعبه وفي تمزيق كلمة الاسلام بين أطرافه ، لأنها لم تعد الكلمة الجامعة كما كانت في روعتها وروائها من قبل ؛ وأما انكبابه على مدنية الغرب ، فإن ذلك يبدو لك من مظاهر حياة بنييه ، تلك الحياة التي تتلمس في أبوابها وجوه الزينة والأناقة ، دون أن تأخذ من هذه المدنية بوجوهها النافعة وروائعها الفنية الخالدات .

إن حياة الأسرة في الشرق صورة قلقة لا تكاد تطلع فيها على جانب مستقر ، أو لون هادئ : فهلا يتفكك أن تعلم بأن الوالد لا يغرس في ولده من طفولته روح الدين ، ولا روح الكرامة ؟

وهلا يتفكك أن تعلم بأن الابن كثيراً ما نازع أباه وخرج عليه ، وانتقص منه ، وترى به الدوائر ... ؟ إنك ترى في الأسرة الشرقية تبايناً في الميول ، وتناقضاً في المشارب ، وعداء في اتجاهات أفرادها ، لأنهم لم ينتهوا من معين واحد ، ولم يصيبوا حظهم في الثقافة من رأى واحد ...

وإذا كانت هذه الحقائق مؤلمة حتى لتدفع الحق إلى كثير من النفوس ، فأن الافصاح عنها خطوة سديدة قد تجدى وقد تنفع .

كيف ننجو ؟

الحق أن هذه الأمراض تستند من عقولنا بقدر ما تستند من حياتنا ، فهي تجذب العقول ، وتزيد في متاعب الحياة ، ولكننا نستطيع بشيء من الجهد وشيء آخر من التعاضد أن ننجو من وعثائها وضيرها .

أريد من المسلمين أن يعلموا بأن دينهم قد وسع كل شيء ، وأن شعائره إذ يتبعونها ويفيئون إلى ظلها الوارف قد تقيمهم مصارع السوء ، وأن تعاليمه فيها من وسائل التريية الحديثة ما يحقق لهم وجوه النفع في حياتهم على ضروبها ، من مادية وروحانية ، ومن ثقافة وتهذيب . وأدعواهم ليفكروا ويفكروا طويلاً في سير الشعوب ومنطق الحوادث التي جابت الأمم حتى يأخذوا عن هذه السير ما فيها من عبر وما تظم من عظات ، وحتى يصيبوا من منطق الحوادث العالمية ما يكون لهم سبيلاً يدبون فيه ، ومنهلاً يعبون منه ، وروحاً يتجهون به إلى سبيل المثل العليا .

لقد أفهم أن يأخذ المسلمون من حضارة الغرب نواحيها الدالة على شخصية أبنائه ، تلك الشخصية التي تركز في صنائعهم جميعاً ، ولكنني لا أستطيع أن أفهم علة الأخذ بنقائص الغرب وعيوبه ... هناك جمعية الأمم ، وهذه الجمعية ما تكاد تنفض حتى تجتمع ، وما تكاد تنتهي من دورة قديمة حتى تبدأ دورة جديدة ... هي برلمان عالمي دائم العمل ، دائم الجهود .

المؤتمر الاسلامي :

وهنا ... لا أريد أن أثقل عليك فأحدثك طويلاً عن هذه العثرات التي توفرت على طريق المؤتمر الاسلامي المتواضع ، حتى كادت تدفع به إلى الرمس قبل أن يشهد الضوء ، ولا أريد أن أحدثك طويلاً عن هذه الروح المتقاعدة التي دعت المؤتمرين إلى تسجيل كبيرة كبرى وهي أن لا يعقدوا مؤتمراً إلا كل عامين ! .. نعم لقد قرر المؤتمر ذلك وهم يعلمون أن

جئيرهم لاسبيل إلى تفوذه في الأعماق إلا أن يبقى داوياً كثير المصنف ، وهم يعلمون إلى ذلك أن جلال المؤتمر لن يكون الجلال المنشود إلا أن تم عليه نعمة العمل النافع في فترات متقاربة ... إن وسائل النقل في العالم قد انتهت في أسباب السرعة إلى الشأو ، فقد أصبح ميسوراً عليك أن تجوب الدنيا في بضعة أيام ، وأن تحدث إلى أطرافها في ثوان معدودات ، وما من ريب في أن التحكك بمشاق الطريق ، ووعناء السفر ، قد أصبح في عرفنا الحاضر ، وكأنه حديث خرافة !

ألم يكن في وسع المؤتمر إذن أن يقتضب من عهد أجازته ؟

شخصيات :

وثمة ناحية أخرى أريد أن أسجل فيها نقدة جديرة - فيما أرى - بالتقدير والتحقيق . فقد حضرت المؤتمر الاسلامي واطلعت على شخصياته ولا يستها وعملت معها ، وإني لأصرح لك ملمعاً بأنها كانت شخصيات نافعة لها قيمتها ، ولها روحها الوثوب ، ولها أفكارها السديدة ؛ ولكني تلفت حولي رجاء مني أن أطلع على شخصيات أخرى تشبه هذه الشخصيات التي تجتمع في عصبة الأمم ، فلم أعر منها في المؤتمر إلا على النذر اليسير ... إن في المسلمين شخصيات بارزة لها الخطر الموفور ، والكلمة الأخيرة ، والقوة والنفوذ ، ولقد كان حقاً عليها أن تنفر إلى المؤتمر في بداية خطواته ، وهستهل مراحلها حتى تزيد في قوته ، وحتى تجعل لقراراته من التأثير ما يوفر عليها مظاهر الجدد إنك ترى أن عصبة الأمم التي تجتمع في كل عام بضع مرات في عدة مدن .. ترى أنها تزدهم في اجتماعاتها بالشخصيات الكبيرة ما بين وزراء ومراة وعلماء وأدباء .. أما المؤتمر الاسلامي فقد كانت شخصية العلماء فيه أبرز ظهوراً .. وهو لم يجتمع - في زعمي - لكي يتحدث في شعائر الدين وحدها ، ولكنه اجتمع ليظهر العالم على أن الاسلام قد رفع رأسه ، وأراد للمضي في حلبة الجهاد ليكافح الصهيونية والاستعمار والاحاد والعقوق .. ! وفي يقيني أن هذه الأبواب الشاقة كان من حقها أن تنفرج لينفذ إلى باطنها عديد من شخصياتنا الكبيرة .

إني أرى أنه من خير عظماء المسلمين ، ألا يؤمنوا في أنفسهم أنهم قادة لا تتناول إلى أقدامهم دوافع الحياة وما فيها من بواعث تدعو إلى العمل ، وإنما الخير لهم كل الخير أن يؤمنوا بأنهم - قد وضعوا في مكانة الذروة - هداة للناس ومبشرين للعالم ... أجل إنهم مبشرون لو انصفوا ، فهكذا شابت لهم الأقدار ، ومن حقهم أن يستيقظوا من سباتهم ليعلموا أن الأقدار حين رفعتهم إنما أرادتهم على أن يدفعوا الثمن جهاداً وقضحية في ذمة دينهم القويم

حياتنا :

أعود به الى جانب عام تتلقفه وجهة شخصية لتفهم عنى كل شيء ... أما أنه جانب عام

فذلك لعوده إلى الاسلام في صوبه الأخير ، وأما أنه جانب شخصي فذلك لأنه يتناول البلد الذي خرجت عنه ...!

وما أريد أن تذرف الدمع ، أو يذرف واحد من قرائك دمعاً ، وإن تكن النكبة مما تهون في التوجع منها سيول الدموع .

فإن هناك - هناك بين أحضان البلاشفة - ثلاثين مليوناً من المسلمين قد دفعت بهم البلشفية إلى مواقف التهلكة ، إنهم يتبرمون من شيوعية الروس ، ولكن جزاءهم على تبرمهم المقت والموت والعذاب والتشريد .

لقد هوى الروس بمعاولهم على مساجدنا في (التفكاس وايدال أورال) غربوها ، ولقد مزقوا المصاحف وجعلوا من كتب الدين طعاماً للنار ، وحقدوا على اللغة العربية فأزهدوها ؛ ولقد أصارتنا الشيوعية ولا رجاء لنا في تقويم أبنائنا وفق مألشتهم ؛ لأنها تدرس لهم تعاليم بقوة الحديد والنار ؛ ولقد ضربت على أيدينا بيد من فولاذ لأننا أئينا عليها أن تمضي بنا بعيداً عن ديننا الخفيف وتعاليمه الرشيدة ، وماذا يجدي القول بل ماذا يجدي الاحتجاج حيال أمة قوية من شعبة ضعيفة لا نصير لها . ؟

دعوة إلى النجدة :

ليس على أن أعيد عليكم فظائع الروس في أمتنا ، فقد علم بها كل ناطق بالضاد ؛ ولكنني أهيب بكم أن تدفعوا إلى قراء « المعرفة » ذلك الأمل الذي أنشد ، والرجاء الذي أريد .
أمل في كل مسلم أن يتوجه باحتجاجه إلى مراجع المظلومين ؛ أجل ! أمل في كل مسلم أن يدرك بأن ثلاثين مليوناً من إخوانه يسمون في بلدكم الخسف ، وتبيلغون بالبالقمة السائغة ولا بالكلمة الطيبة ، وإنما طعامهم من زقوم ، ومقامهم من الذلة في حضيتها .. فإذا ما احتجوا على ما يلحق بهم من عذاب ، فقد تخف عنهم النكبة ، أو ترحل عن كواهلهم الأعباء ، أو يجردون في جهنم شيئاً من السلوى ، أو يفتن عدوهم الآلد - وهو عدو العالم بأسره - إلى جريرته فيضعف من حدتها ، ويقلل من شدتها .

لقد كان احتجاج الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بلسان هذه الجراح ؛ وحيات هذه الجهود التي احتسبناها إلى الموت ، ولكنني أريد أن يتأثره كل مسلم يدب على الأرض ، وأمل أن تكون « الشخصيات الكبيرة » بين المسلمين ، قد فطنت إلى واجبها حيال هذا المصاب ، فإن في صوتها دويًا ، وفي جاراتها روحاً قويا !....